قصة : مال الله حسين

كان الرصيف أمـــام باب المقهـى ، مزدحما بالرواد . وانتشرت عليه المقاعد والكراسى ... أما فى الداخل ، فكان خاليا تماما ... كانت الارض قد رشت منذ وقت قصير ، لذلك أحس الجالسون ، بالحر والرطوبة الخانقة ..

الصمت قد خيم على المكان بعـــد أن سكتت الأصوات التى كانت تعلق على ســير اللعب ، كلما تدحرج النرد أمام اللاعبين .. وانحسرت الشمس تاركة الشارع الهادىء أمام الرصيف ، يحتضن ظلال العمارة الشاهقة ..

تململ (أبو ستار) فوق مقعده ، ونظر الى الجالس أمامه ، وكأنه يستحثه على الحديث ... وبعد صمت قصير قال بنفاذ صبر :

ـ لم تخبرنى ماذا قررت أن تفعل؟..

أجاب **(أبو ناجى)** وهو يمسح العرق المتصبب من وجهه :

ـ سأنتظر بعض الوقت ... لعلى أجد عملا آخر ...

ارتسمت على وجه **أبى ستار** علامات الأسف وخيبة الأمل وقال بعد تردد :

ـ يا أخى .. والله العمل بسيط .. بسيط جدا ! .. بضعة أيام فتتعود عليه ، ولا تشعر بالخجل أو الحرج ..

هز **أبو ناجى** رأسه ببطء وقال بانفعال :

ـ والله صعبة على هذه الأشياء ... يا أخى أنا لم أتعود مثل هذا العمل .. أقف بباب الملهى أمسح سيارات باقى عمرى ؟ ... لا أستطيع أبدا .. !

سكت ، وفى عينيه الغضب والحيرة.. سعل **أبو ستار** واعتدل فى جلسته وقد ارتسمت على وجهه امارات الضيق والتبرم ... تمخط ومسح أنفه بظاهر يده ثم قال :

ـ اذا أردت أن تموت جوعا ، احتفظ بكرامتك ... مضت سنة وأنت تبحث عن عمل يلائمك ! بلا نتيجة .. أريد أن أعرف ماذا تستطيع أن تعمل وأنت بهذا الحال ؟! ..

كان ينظر اليه باشفاق وألم .. وبعد صمت قصير أضاف متوسلا :

ـ الله يحفظ لك ناجى ، فكر بعائلتك .. فكر بمصير ابنك ومستقبله ! ... والله لو لم يتوظف ابنى ستار ، لما تركت هذا العمل ... صار لى خمس سنين وأنا أمسح سيارات .. و ...

وسكت غاضبا ... خيم الصمت على المكان . وارتفع صوت الراديو يؤذن لصلاة المغرب ... خف الزحام ، وتبعثر الرواد كل الى جهة ... نهض أبو ستار واقترب من **أبى ناجى** وهمس قائلا :

ـ أنا ذاهب ... أرجو أن تسمع كلامى وتذهب فى الساعة التاسعة ، وتجرب مرة واحدة ..

وسار مبتعدا عن المقهى ..

بقى أبو ناجى جالسا وحده يفكر : **ماذا يفعل ؟ ... أيذهب ويجرب ؟ .. صحيح هو بحاجة الى العمل ، ولكن أيرضى بهذا ؟ ! ...** وأخيرا أقنع نفسه بالتجربة ...

فى التاسعة تماما كان قد وصل الملهى بخطوات متعثرة خجلى ... نظر أمامه ... ليس هناك أى سيارة .. جلس على الرصيف أمام الباب ينتظر ... ومضت ساعة احتشدت السيارات فى الساحة وفى الشارع ... وقف أمامها حائرا ، يرتسم التردد فى عينيه ، ويفضحه الاضطراب والخجل ... قلب الخرقة فى يده ، ودعكها ... انه لا يدرى ماذا يفعل .. وكيف يبدأ .. ! وتمتم فى سره :

ـ « واذا انتهيت من المسح ، من يقول انى سأقبض ! ؟ ... اللعنة على أجدادك يا أبا ستار .. أوقعتنى بهذه الورطة بسهولة ! ... »

تمشى متنقلا بين السيارات جميعا ، يتفحصها ، ولا يدرى بأيها يبدأ .. كان هناك خليط منها ، القديمة والجديدة .. الجرباء واللماعة .. وأسر فى نفسه :

ـ » السيارات أيضا مثل الناس ..

يستطيع أن يلحظ عليها القبح والجمال الفقر والغنى ... »

هز رأسه .. ابتسم ولعن الدنيا فى سره .. رفع رأسه الى السماء وغمغم من بين أسنانه :

ـ « **سأبدأ وأمرى الى الله ...** » .

وتقـــدم ... ومن ورائه سمع وقع أقدام .. استدار .. كان شرطى يقف وراءه يتفحصه :

ـ ماذا تفعل هنا .. ؟ ..

قالها الشرطى بقوة وصرامة .. غاص قلب أبى ناجى واضطرب وبصـــوت متخاذل قال :

ـ **أ ... أمســـح .. أبو ســـتار بعشنى ..**

ابتسم الشرطى ابتسامة الواثق من قـــوته .. طبطب بعصـــاه على فخذه بايقاع ، ثم تحرك مبتعدا .

حين انتهى من العمل ، كان منهكا .. جلس على الرصيف يستريح . وطافت عيناه تتفحصان نتيجة عمله .. تنفس بارتياح . مسح العرق عن جبينه ، وبدأ يعد السيارات . **ثلاث عشرة سيارة .. اى ثلاثة عشر درهما ان صـــح ما قاله أبو ستار ...!**

وانتبه الى ضـــحكات تراقصـــت فى داخل الملهى .. تدحرجت الموســـيقى تحمل الضجيج الى أذنيه .. انه لا يفهم شيئا . كل شىء هنا ينطق بغير لغته هو .. كل شىء غريب عنه ، حتى النساء هنا يختلفن .. بيضاوات شقراوات ، رشيقات طويلات . **يتكلمن الـ ... ماذا ؟ ! .. انه لا يدرى ... وتذكر ابنه .. ناجى تلميذ مدرسة ربما يعرف لغتهن ..**

خيم عليه الحـــزن ، وسرح ببصره بعيدا ونسى الضجيج من حوله ... كم تألم وهو يرى ابنه الوحيد عائدا فى الليل من المقهى ، والتعب يهد جسمه الصغير هدا .. خمس ساعات يحمل الماء بيده ، يدور ويدور .. ! .. ولكن لولاه والدراهم القليلة التى يأتى بها كل ليلة ، لانفضح حاله ..

وأحس بالألم يعتصر قلبه.. ارتعشت أجفانه ... اختنق بأنفاسه الحارة .. زفر الالم بقوة ويأس .. غامت عينـــاه بدموع اعتصرها الأسى .. تلمس كتفه بيده . زحفت يده الى الأسفل ببطء ، اعتصرت القمـــاش الذى يســـتر ذراعه المقطوعة .. بكى بصمت .. انسابت دموعه حارة غزيرة تكوى خديه .. هز

جسمه الانفعال . وكاد ينفجر .. تمالك نفسه وهدأ .. أرخى يده عن القماش وأسند رأسه براحة يده .. **ثلاث سنين** مضت والصورة الأليمة تفرض نفسها **على مخيلته بالحاح .. وعناد فيتذكر الحادث :**

ـ « محمود .. ساعدنى لنعمل ثغرة ، وندفع الجدار كله مرة واحدة ... أوشك النهار أن ينقضى ونحن لم نهدم شيئا بعد ... »

هكذا قال له أبو كاظم وهما يشتغلان بهدم بيت قديم ..

ساعده وعملا الثغرة ... ولكنهما لم يدفعا الجدار ... اندفع لوحده فوقهما .. مات أبو كاظم وخرج هو بدماء تسيل على وجهه و ... ذراع مسحوقة ، قطعت فيما بعد ، وبقى عاطلا هذه السنوات ..

ـ ... ...

سمع كلمات لم يفهمها .. انتشلته من ذكرياته الأليمة .. نهض واقفا ، وسار يسبق المتكلمين الى الساحة . ووقف أمام السيارة يمسح بسرعة ... اقتربا ، وفاحت رائحة العطور تخدش أنفه .. أحس برأسه يدور ، وفى قلبه دبت خفقة النشوة . كان الرجل ثخينا قصير القامة أصلع الرأس .. وكانت الفتاة حسناء جميلة القوام .. ركبا ، وركبت معهما الضحكات المحبوسة ... اضيئت المصابيح .. دار المحرك ، وتحركت السيارة ... ابتعد عن طريقها بسرعة .. وبسرعة أيضا مرقت السيارة تهدر وتزمجر ، وكأنها تهزأ منه وتبصق الضحكات ...

وقف مشدوها وفى داخله يعوى الغضب :

ـ « لو لم أتقدم لمسح بى الارض .. مجنون ! ؟ .. » .

كانت السيارة أمام الملهى تتناقص بالتدريج .. ويد أبى ناجى تداعب الدراهم فى جيبه .. تماوج نسيم الليل برقة ونثم وجهه الملتهب ... دب النعاس فى أجفانه وأحس بالخمول يسرى فى أوصاله .. لم يبق فى الساحة الا سيارة واحدة .. كانت فارهة أنيقة .. تقدم منها وتفحصها باستخفاف ... وحقد . وهمس فى سره :

ـ « السيارة جديدة .. وصاحبها غنى لا محالة .. ودراهمى الستة التى فى جيبى سوف لا تزيد .. »

واستدار ليذهب الى البيت .. ألقى نظرة عجلى على باب الملهى ... كان الشرطى يتقدم نحوه والابتسامة تطفح من وجهه :

ـ كيف وجدت العمل .. ؟

ـ لا بأس به ... على الرغم من أنه **مخجل ... ! .**

قال الشرطى وفى صوته شىء من الألم :

ـ « لا تنتظر من غنى عطاء .. وأنت لا تحس بالخجل مرة أخرى .. ! .. »

وافترقا ... سار أبو ناجى قاصدا البيت وبسمة الرضى تملأ وجهه الأسمر .. ويده تداعب القماش الذى يستر يده المقطوعة ...

مال الله حسين

العراق ـ الموصل ـ